الجهاد في سبيل الله

أو واجب المسلمين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما:

الجهاد في سبيل الله أو واجب المسلمين، وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم، وهيئتهم الاجتماعية:

قد أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه الذي هو حبله، والدعوة إلى ذلك، والألفة، والاجتماع، والتعاون على الخير والبر والتقوى والاستعانة بالله في جميع أمورهم، وقوة التوكل عليه والقيام بالمستطاع المقدور عليه من الدين والتقوى، وتعلم ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من العلوم والفنون النافعة التي يحصل بها قيام الدين والأمة، والتمرن على القوة المعنوية، والشجاعة الإيمانية، وبالأسباب المقوية للإيمان كلها، وبالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة المبطلين والضالين بالتي هي أحسن، والجهاد في الله حق جهاده.

فهذه الأوامر الإلهية في القرآن في مواضع كثيرة، وكلها داخلة في الجهاد في سبيله، لأن معنى الجهاد في سبيل الله بذل المجهود في تقوية المسلمين؛ تقوية معنوية، وتقوية مادية، وبذل المجهود في مقاومة الأعداء، وفي سلوك كل طريق يحصل به دفع شرهم والنكاية بهم، فعلى هذا يكون مجموع أصول الجهاد نوعين:

أحدهما: السعي الحثيث في تقوية المسلمين، والسعي في إزالة الضغائن والعدوات الواقعة بين أفرادهم وجماعاتهم وحكوماتهم بالدعايات والمواعظ المناسبة للحال.

وأن يكون صوت المسلمين واحدا يتكلم ويدعو إليه العلماء والكبراء وجميع طبقات

الناس كلهم يتفقون لهذه الدعوة بحسب إمكانهم.

ومما يسهل عليهم هذا الأمر مع صعوبته في بادئ الأمر، أن يعلموا أن هذا السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال، وأنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة، وأنه من أعظم وأجل الجهاد في سبيل الله، فإن أصل الجهاد الذي لا يستقيم إلا به اتفاق الكلمة وارتباط المسلمين بالأخوة الدينية ارتباطا وثيقا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وبه يحصل أسباب النصر؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. فبين أنه يجب على المؤمنين الارتباط بالأخوة الدينية، وأن تحقيق هذا الأمر من مقتضيات الإيمان وشروطه، وأنه كلما قوي إيمان العبد عرف مقدار نفع هذا الأمر وعمل واجتهد عليه، وأن الله نصر نبيه بأمرين:

أمر سماوي: وهو نصره الذي ينزله على المتقين القائمين بدينهم.

وأمر معنوي: وهو اجتماع المسلمين وتآلف قلوبهم وحصول التحاب الذي يوجب لكل منهم أن يرى مصلحته ومصلحة إخوانه واحدة والغاية واحدة.

فالواجب على جميع طبقات الأمة - لا سيما الرؤساء، رؤساء الدين ورؤساء الدنيا - أن يجاهدوا أنفسهم وإخوانهم المسلمين لتحقيق الأخوة الإيمانية؛ وإذا سلكت طرقه وأبوابه التي تسهله، وشعر كل واحد بما يجب عليه لربه ودينه ولإخوانه، واستعانوا بالله ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس، أفلحوا. فإن هذين الأمرين أعظم الموانع لحصول المصالح ودفع المضار. فإن الكسل والخور ينافي الرغبة في الدين، وينافي الجهاد الحقيقي، وأما اليأس من حصول المصالح ومن دفع المضار فإنه الهلاك بعينه، وهل أخر المسلمين عن الأمم، إلا تفرقهم وكسلهم وجبنهم وخورهم ويأسهم من القيام بشئونهم حتى صاروا بذلك عالة على غيرهم. ودينهم قد حذرهم عن هذه الأمور أشد التحذير. وأمرهم أن يكونوا في

مقدمة الخلق في القوة، والشجاعة، والصبر، والملازمة للسعي في كل أمر نافع، والعزم، والحزم، والرجاء وحسن الثقة بالله في تحقيق مطالبهم، والدواعي لهم في ذلك متوفرة، فإن مجرد السعي في ذلك بحسب الإمكان من أفضل الأعمال المقربة إلى الله.

والقوة الإيمانية والأخوة الدينية ووجوب النصيحة وارتقاب مواعيد المولى الصادقة التي لا تتخلف عن أسبابها، حيث وعد المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان بالعون والنصر والتسديد والتأييد. كل واحد من هذه الأمور يكفي وحده في حث المؤمنين على القيام بشئونهم ومصالحهم الكلية، فكيف وهي كلها حاصلة؟

ثم إن الكسلان الذي ملكه الخور واليأس، أي شيء يرتقب وأي خير ينتظر؟ أليس الوهن والضعف والجبن أكبر سلاح للأعداء، وهي الطريق الوحيد للذل والإهانة والسقوط إلى أسفل سافلين من تسفل النفس وهبوط الأخلاق؟ فأين الأنفة النفسية وأين الحمية الدينية، وأين الشهامة الإنسانية؟ فوالله إن موت هؤلاء خير من حياتهم حياة الذل وموت الأخلاق الطيبة، أليس هذا ميراثا تلقوه عن المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

أين هؤلاء ممن قال فيهم وفي نفوسهم الجميلة والجليلة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ولكل قوم وارث، فقد ورثهم في الأرض رجال من المؤمنين من ملوكهم، ورؤسائهم وعلمائهم وأشرافهم وذوي النجدات منهم، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث عاهدوا ربهم على التمسك بدينه والقيام به أتم القيام والجهاد في سبيله.

فمنهم: الباذل لنفسه.

ومنهم: الباذل لماله.

ومنهم: الحاث لإخوانه المسلمين على القيام بما يقدرون عليه.

ومنهم: الساعي بينهم بالنصيحة والتأليف.

ومنهم: المنشط للمؤمنين بقوله وماله وجاهه.

منهم: الفذ الجامع لذلك كله.

فهؤلاء رجالات المؤمنين وخيار المسلمين الذين بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الرواسي في إيمانهم وجهادهم، ولا يردهم عن مرادهم راد، ولا يصدهم عن المضي في سبيلهم صاد، لا تزعزعهم الحوادث، ولا تفزعهم الكوارث، تتوالى عليهم المصائب فيثبتون لها ثبوت الجبال، وتتتابعهم الأهوال المفظعة فيتلقونها بصدور منشرحة وأنفس مطمئنة فعل الكمل من الرجال. فواها لهؤلاء الأبطال، ما أعلى قدرهم، ولله درهم ما أعظم ثوابهم، وأجزل أجرهم.

ومما يجب على المؤمنين أن يحذروا غاية الحذر من المخذلين المرجفين ومن المفسدين بينهم في السعي في الفتن والتفريق بينهم؛ إن هؤلاء أضر عليهم من العدو المحارب، قال تعالى في وصف أمثال هؤلاء: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي مستجيبون لهؤلاء المفسدين لا يفهمون مغزى مرادهم فيغترون بهم، فتحصل الفرقة بين المؤمنين. فعلى المؤمنين أن ينتبهوا لهؤلاء المفسدين. وعلى المسلمين أيضا ألا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب وفي الملك، والسياسات والأغراض الشخصية حائلا يحول بينهم وبين تحقيق الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية، بل يجعلون الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعا لهذا الأصل الكبير، لأن مصلحة ذلك الكلية وما يطلبهم دينهم منهم من الوحدة والألفة وما يمنعهم منه من التفرق المفكك لوحدتهم وقوتهم يأتي على ذلك أجمع، ويقدم على كل شيء.

فالمصالح الكلية تتدرج فيها الأغراض الجزئية، فمتى صار الغرض الوحيد المصالح العامة تبعتها المصالح الخاصة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]. فهذه الآية وما أشبهها من الآيات بينت أن أمثال هؤلاء المرجفين ضررهم عظيم، وشرهم مستطير، وما أكثر وراثهم في هذه الأوقات التي اضطر المسلمون فيها إلى نصرة الأولياء، حيث يوجد طائفة من الناس يثبطون عن الجهاد في سبيله، ومقاومة الأعداء، ويخدرون أعصابهم ويؤيسون المسلمين، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا فائدة فيه، فهؤلاء لا خير فيهم؛ لا دين صحيح، ولا مروءة ولا إنسانية، ولا حمية قومية وطنية. ومع ذلك فهم صاروا أضر على المسلمين من الأعداء. فليعلم أمثال هؤلاء ومن يستجيب لهم أن الله لم يكلف المؤمنين إلا وسعهم وطاقتهم، وأن لهم في رسول الله أسوة حسنة. فقد كان ﷺ له حالان في الجهاد والدعوة، أمر في كل حال بما يليق بها ويناسبها، أمر لما كان في مكة والمسلمون قليل والقوة ضعيفة والأعداء كثيرون بالاقتصار على الدعوة إلى الدين وبيان محاسنه وجذب الناس إليه وجهادهم بالدعوة. وأمر أن يكف يده عن القتال باليد لما فيه من الضرر وخلاف الحكمة كما هو ظاهر لكل أحد، وأن يسالم الأعداء ويستدفع ضررهم بكل طريق ويتحمل كثيرا مما يعملون معه ومع الإسلام.

فلما هاجر إلى المدينة وقوي المسلمون وكثروا وعظمت وطأة الأعداء ومقاوماتهم العنيفة للإسلام والمسلمين، أمر بجهاد اليد مع جهاد الدعوة، فللمسلمين برسول الله أسوة حسنة، من كانت المصلحة تقتضي مهادنتهم ومسالمتهم من الأعداء سالموه وهادنوه، وتحملوا أضرارهم القليلة لدفع ما هو أعظم منها، ومن تعينت المصلحة في قتالهم بالسلاح لعدوانهم وشرهم وضررهم الكبير قاوموه بالسلاح والقوة، فيتبعون ما تعينت مصلحته الدينية ويستعينون على المضي في أحد الأمرين بالمشاورة والمراودة. والمشاورة أحد أصول السياسة الدينية بل هي أهم قواعدها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا من أهم ما فرضه الله على المؤمنين في إصلاح وتدبير أمورهم الكلية، وله من

الفوائد ما لا يحصى.

منها: امتثال أمر الله والاقتداء برسول الله ﷺ إذ كان يشاور أصحابه في كل أمر مهم.

ومنها: أن المشاورة من أكبر الأسباب لإصابة الصواب وسلوك الطرق النافعة لاجتماع آراء المؤمنين وأفكارهم، وتنقيحها وتصفيتها، مع أن الله معهم في هذه الحال يسددهم ويؤيدهم.

ومنها: أن المشاورة تتنور فيها الأفكار وترقى فيها العقول والآراء لأنها تمرين للأذهان، واستعمال للقوة العقلية فيما خلقت له وهيئت، واقتباس بعضهم من آراء بعض.

ومنها: أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو عدة آراء ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمشاورة.

ومنها: أن المشاورة من أسباب المحبة بين المؤمنين، وتآلف قلوبهم وشعور جميعهم أن مصلحتهم واحدة، وتنبه الأذهان للفكر في ذلك، فإن من لا يشاور في الغالب فإنه لا يعمل فكره في هذه الأمور فضلا عن أن يهتدي إلى الصواب.

ففتح باب المشاورة بين المؤمنين في تعيين مصالحهم الكلية ودفع مضارهم، وفي أنسب الوسائل، والطرق التي يسلكونها لتحصيل ذلك عون كبير على القوة والصلاح والفلاح والنجاح. وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يسعوا إلى مصالحهم، وعلمهم كيفية الوصول إليها بإعمالهم لأفكارهم مجتمعين، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا ظهرت المضرة في أمر من الأمور سعوا إلى دفعها ومدافعتها، وإذا اشتبهت المصالح بما ينافيها من المضار وتعارضت قدموا راجحها على مرجوحها، فلا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية صغيرة ولا كبيرة إلا تشاوروا فيها وقدموا ما تقتضيه المصلحة. وقد أوجب الله على المسلمين أمرين عظيمين عليهما مدار الجهاد: الاستعداد لعدوهم بما يستطيعون من قوة عقلية ومعنوية

ومادية. ويدخل في ذلك تعلم الفنون الحربية من الرمي والركوب وعمل السلاح المناسب للوقت والمكان، وبما لا تتم هذه الأمور إلا به من تعلم الصناعات المعينة على هذا الأمر.

وأمرهم بأخذ الحذر من عدوهم وهو التحرز والتحصن منهم. وأن يكونوا منهم أبدا على حذر في وقت السلم فضلا عن وقت الحرب، وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم لنعلم كل حركاتهم العلمية والحربية حتى لا يسبقونا إلى الأعمال والصنائع النافعة، فإن ضعف المسلمين وقصورهم وجهلهم بالصنائع وعمل الأسلحة من فرص الأعداء، فلنأخذ عليهم هذا الطريق الذي منه يدخلون علينا، لعل الله أن يكف بأس الذين كفروا، ولا نكون عالة فيها وفي غيرها عليهم، فإنهم بذلك يتمكنون مما يريدون، فإن لله في هذه الدنيا سننا لا تتغير، وإن الحياة العزيزة لا تكون لمن أذل نفسه وخذلها وتسول غيره.

ولئن قال متحذلق مخذل: إن أمة المسلمين الآن متعذر عليهم أن يسلكوا هذا الطريق فذاك من جهله وجبنه وخوره، فالله تعالى حكيم، وأمرنا بسلوك طرق الحكمة وليست الأمور العظيمة يقفز إليها قفزا. وقد علمنا تعالى أن نبدأ بما نقدر عليه، ولا نترك المقدور لعجزنا عن الكمال، فمتى أدينا ما علينا وقمنا بما فرض علينا وما نستطيعه، كنا مجاهدين ومحمودين وعزيزين، فإن من يسعى لعزه ولغاية مجده فطريقه وإن كان ضعيفا فهو طريق المجد وطريق الحزم وطريق القوة والشجاعة. فرحم الله من أعان على الإسلام ولو بشطر كلمة.

وقد أمر الله بالجهاد بالنفس، والمال وبالأقوال، والأفعال وبالمباشرة وإعانة المباشرين بالمال، والدعوة، والتشجيع، والتحريض؛ فكل من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق[1]، كما صح الحديث بذلك.

فأهل الحل والعقد والرياسة من الملوك، والأمراء، والوزراء، ورجال الدول الإسلامية

(١) أبو داود (٢٥٠٢)، النسائي (٣٠٩٧).

عليهم أن يسعوا أحث السعي لتحصيل القوتين؛ القوة المعنوية، والقوة المادية، بإزالة جميع الحواجز، والموانع التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وتآلف قلوبهم، وأن يفهموا الأسباب التي فرقتهم؛ من الأغراض الشخصية والمطامع والأغراض الردية، والأيدي الأجنبية، فإنهم متى فهموها حق الفهم عرفوا أنها تنافي مصالحهم الدينية والدنيوية، ومنافعهم الكلية، وتنافي ما يحث عليه العقل والحزم من وجوب تقديم المصالح العامة على الأغراض الخاصة. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. فتوعد الله من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله ومنعته من الجهاد في سبيله وقدمها عليه. وهذه المذكورات في هذه الآية الكريمة هي الموانع والحواجز عن القيام بالجهاد في سبيله قولا وفعلا، ومن أكبر أسباب الجبن، فلا يتحقق الإيمان إلا بتقديم حب الله ورسوله والجهاد في سبيله عليها، فإن الله قد وعد على الجهاد في سبيله مغفرة الذنوب والسيئات وحصول الخيرات ودخول الجنات والفتح في الدنيا والعز والنصر القريب. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصف: ١٣]. فأخبر تعالى أن من قام بالإيمان والجهاد فقد حصل التجارة الرابحة وأدرك الصفقة والغنيمة والخيرات المتتابعة.

تالله لقد حرم الناكلون عن الجهاد خيرا كثيرا، ولقد سعوا فيما يكسب الذل وخسروا خسرانا كبيرا، فأين الشهامة الدينية وأين الغيرة الإيمانية، وأين الرغبة في الخير؟

يا عجبا لمؤمن يرى أهل الباطل يجهدون ويألمون في نصر باطلهم، وهم لا غاية لهم شريفة يطلبونها، وهو مخلد إلى الكسل عن نصر الحق الذي يترتب على نصره من الخيرات العاجلة والآجلة ما لا يمكن التعبير عنه، كل ذلك خوفا من المشقة وزهدا في إعانة إخوانه المسلمين في ماله أو بدنه وقوله وفعله، بل زهدا في مصالح نفسه الحقيقية.

قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه وتبيين منافعه ومصالحه الضرورية وحض الناس على ذلك أعظم مما على غيرهم. وعليهم أن يوضحوا للمسلمين أن جميع حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوية للدين ودفع ضرر الأعداء، كلها داخلة في هذا الواجب العظيم، وأن يفهموهم أن الاختلاف في المذاهب والتباين في المشارب لا يمنع من اتفاقهم جميعا على هذا الأصل الذي يجمع قاصيهم لدانيهم، وأن المصالح العامة الكلية مقدمة على الأغراض الجزئية والمنافع الشخصية وأن هذا العمل مصلح لدين المسلمين ودنياهم. ثم على كل فرد أن يبدي مجهوده في نصر الدين وتقوية المسلمين بما استطاع من نفقة أو قول أن ينهض المسلمين ويقوي عزائمهم ويبعث هممهم.

وعلى الرؤساء، والمرءوسين الترغيب في تعلم الفنون الحربية والصناعات النافعة، وعمل الأسلحة والحصون الواقية واستجلاب ما تعذرت صناعته، والسعي في تنمية المصالح والمنافع الاقتصادية بالعمل بالأسباب الميسرة لها، المعينة على تحصيلها، فإن المصالح الاقتصادية هي العون على المصالح الدينية، فكل ما فيه تقوية المسلمين ودفع الأضرار والشرور من الأعداء عنهم فهو من الجهاد.

وعليهم أن يدرسوا أحوال الأمم الأجنبية وسياساتهم فإن معرفة ذلك من أسباب أخذ الحذر منهم والتوقي لشرهم.

وعليهم مع فعل الأسباب النافعة أن يتوكلوا على الله ويستعينوا به ولا يتكلوا على حولهم وقوتهم، ولا يغتروا بحالهم ويعجبوا بأنفسهم ولا يستهينوا بأعدائهم بل يحسبون لهم كل حساب.

ومن أعظم الجهاد، الجهاد المالي، والله تعالى قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق وبها يستعان على قتال الأعداء

بتحصيل الأسلحة وصناعتها، والمراكب المناسبة لزمانهم، وإقامة جميع مؤن الجهاد. حتى إن دفع المال الذي يدفع للأعداء لوقاية شرهم من الجهاد بالمال، فبذل المال للأجانب، عند الاضطرار، مقدم على ما هو أخطر منه وأشد ضررا. وقد أمرهم الله أن يتعاونوا على البر والتقوى. فالبر اسم جامع لفعل الخير كله ووسائله وطرقه.

كما أن التقوى اسم جامع للتعاون على اتقاء ما يخشى ضرره في الدين والدنيا والآخرة، أي تعاونوا على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات، وتعاونوا على كل وسيلة تعين على ذلك، فالعالم بوعظه وتذكيره وتعليمه، والغني بماله، ذو السداد برأيه وعقله وتدبيره وسياسته، وأهل النجدة والشهامة بقوتهم وتحضيضهم لغيرهم والعامل بعمله وصناعته، وكل فرد يعين بنفسه ورعايته وتشجيعه وصاحب الجاه بجاهه، فيكون المؤمنون كالجسد الواحد والبنيان الذي يشد بعضه بعضا قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وهذا يشمل جميع الأوامر الدينية، فليس لأحد عذر في القيام بالمستطاع منها.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

فإنه لما أمر بالجهاد أخبر بالطريق التي تسهله، والدواعي التي تدعو إليه، فكون الله اختار المؤمنين واجتباهم واختار لهم هذا الدين العظيم الذي هو دينه الذي يوصل إليه وإلى كل كرامة، وهذا من أكبر الدواعي إلى الجهاد حيث كان هذا العمل الجليل يوصل إلى كل خير ويدفع كل شر، ومع ذلك فما جعل عليكم في الدين من حرج، فلم تكلفوا من الجهاد إلا ما تستطيعون ويهون عليكم، كل على قدر حاله ومقدرته.

وقد أمرهم الله بالقيام بالقسط والوفاء بالعهود قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

فهذان الأصلان العظيمان وهما:

القيام بالقسط: الذي هو العدل التام على الأنفس والأقربين والأبعدين.

والوفاء بالعهود: كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبالقيام بهما يتم الدين وتحصل الهداية والإعانة من الله والنصر والمدافعة، فما ارتفع أحد إلا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلا بالظلم والجور والغدر.

وهذه الأمور كلها مضطرة إلى قوة التوكل على الله والاقتداء بسيد المرسلين فيه، فهو سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يعمل بجميع الأسباب النافعة ويحض عليها.

فالتوكل هو: الثقة بالله. والاعتماد على قوته وحوله في تيسير الأمور التي يباشرها العبد. والالتجاء إلى الله في حصولها. وطمأنينة القلب فيكون المتوكل يعمل بجد واجتهاد، مطمئنا بالله واثقا به لا يخاف سواه، ولا يرجو غيره؛ لا يملكه اليأس، ولا يساوره القنوط، غير هياب ولا وجل ولا متردد لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصي العباد وأزِمَّة أمورهم تحت تدبيره ومشيئته فإنه القوي العزيز.

بهذا التوكل نال المسلمون الأولون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال، ولم يكن زادهم في مضيهم في سبيلهم إلا قوة التوكل على الله. فهذه حال المسلمين، لا الخور والمهانة والتواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة، فإنه ينافي التوكل كل المنافاة، كحال كثير من الناس في هذه الأوقات؛ يرون عدوهم يحاربهم وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يقاومونه فتكون النتيجة ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، وحلول المصائب المتنوعة عليهم من كل جانب، ويزعمون أنهم متوكلون! كلا والله.

ومن أعظم وسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية، المحتوية على كمال الصداقة. وعدم الاعتداء. واحتفاظ كل حكومة بشخصيتها الدولية، وإدارتها داخلا وخارجا، والتكافل بينها والتضامن. وأن يكونوا يدا واحدة على من تعدى عليهم أو على حقوقهم. وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلبا لمصلحة الكل، وتقريبا

لقلوبهم. وأن يعملوا لهذه الأسس والأصول أعمالها اللائقة بها، والمناسبة لها، ويسعوا أحث السعي لتحقيقه وإزالة العقبات الحائلة دونه.

وهذه وإن كانت في بادئ الرأي صعبة فإنها يسيرة بتيسير الله والتوكل عليه.

واليوم، وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد، والأعداء يتربصون بهم الدوائر - هذه الحالة أوجدت من بينهم أناسا ضعيفي الإيمان ضعيفي الرأي والقوة، يتشاءمون أن الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين إلى ذهاب واضمحلال، ولقد غلطوا في هذا أعظم غلط فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، كما تعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعف المسلمون إلا لأنهم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ وتنكبوا السنن الكونية التي جعلها الله مادة حياة الأمم ورقيها، فإذا رجعوا إلى ما مهده لهم دينهم فإنهم لا بد أن يصلوا إلى الغاية، كلها أو بعضها.

وهذا المذهب المهين، وهو التشاؤم والكسل، لا يعرفه الإسلام، ولا يرتضيه، بل يحذر عنه أشد تحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول وأن مع العسر يسرا، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسرا، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط. فليتق هؤلاء المتشائمون ربهم، وليعلموا أن المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤملون آمالا عظيمة، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن له العاقبة الحميدة، وأن الرجوع إلى تعاليمه وهدايته هو السبب الوحيد لعلو أهله ورفعتهم، ولكن لا يقدمون لدينهم أدنى منفعة، بدنية ولا مالية، ولا يقدمون مساعدة جدية لتحقيق ما يقولون؛ فإن الأقوال لا تقوم إلا إذا قارنتها الأفعال.

ويا طوبى لطائفة هم غرة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، قرنوا الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبأقوالهم وبإنهاض إخوانهم، وتبرءوا من مذهب المتشائمين

ومن أهل الأقوال دون الأفعال، فهؤلاء هم الذين يناط بهم الأمل، وتدرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

ومن أعظم أصول الجهاد والتربية الاعتناء والاهتمام التام بشبان الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ومادة قوتها وعزتها. وبصلاح تربيتهم تصلح الأحوال كلها، فعليهم أن يعتنوا بتربيتهم العالية، وأن يبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة والحزم والعزم، وجميع مبادئ الرجولة. وتدريبهم على المصاعب والمشاق والصبر على الأمور النافعة والثبات عليها، وتحذيرهم من الجبن والخور والسير وراء المادة والطمع، والانطلاق في المجون والهزل والدعة؛ فإن ذلك مدعاة للتأخر العظيم، وشباب الحاضر هم رجال المستقبل؛ وبهم تعقد الآمال، وتدرك الأمور المهمة، فاجتهدوا أن يكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروءة والكمال القدوة المثلى.

ومن أهم أمور الجهاد وخصوصا في هذه الأوقات التعاون بين المسلمين في جميع شئونهم الدينية، والسياسية، والاقتصادية، واتصال بعضهم ببعض في تحقيق ذلك، لأن عددهم كثير وأعداؤهم جادون في الحيلولة بينهم في هذه الأمور، وقد تفننوا في تفريقهم وأقاموا الحواجز والسدود في اتصال بعضهم ببعض، حتى أوهنوا قواهم وساءت حالهم وهم مجدون في هذا الأمر.

فمن أكبر الجهاد السعي في الأسباب التي بها يتعارف المسلمون ويتفاهمون، حتى يعرفوا كيف يتعاونون على الحصول على حقوقهم. ودفع المعتدين عنهم بكل وسيلة؛ ولا ينبغي إذا رأوا أنهم لا يدركون كل ما يريدون أن يضعفوا عن بعض ما ينفعهم ويحصل به الدفاع؛ فمن جد واجتهد واستعان بالله فلا بد له من النجاح.

ومن أهم الجهاد السعي في إصلاح التعليم.

وأن تكون المدارس يعلم فيها الأهم فالأهم من العلوم النافعة للدنيا والدين. وأن يكون الدين هو الأصل الأعظم فيها والأساس الأقوم. وأن يكون غيره وسيلة وتبعا له. وأن يكون

الغرض الوحيد من الناجحين فيها المتخرجين أن يكونوا صالحين في أنفسهم، مصلحين لغيرهم، متربين بالأخلاق النافعة، مهتمين بتربية الأمة؛ فإن أكثر المدارس الآن إنما هي بالعكس من هذا الأمر: الفنون الدنيوية هي الأصل، وعلوم الدين يجعل لها جزء ضعيف من التعليم، ولا يعتنى بأخلاق التلاميذ وآدابهم، وإنما الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا أكبر نقص، وأكبر الدواعي للضعف والانحلال.

ولا شك أن السعي في إصلاح التعليم من أهم الأمور، وبه ترتفع الأمة الإسلامية وتنتفع بعلمائها وعلومها، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصودا بها حصول المنافع والصلاح والإصلاح.

ومن أهم أمور الجهاد، بل هو أصله وقاعدته أنه كما يلزم الاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش العاملة والأهب الوافرة، فينبغي أن تولى الأكفاء من ذوي الرأي والحكمة والخبرة والتدبير والحزم والحذق. وأن يكونوا أهل دين وأصل راسخ؛ يقومون على شئون المملكة، يوطئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا المنزلة التي تليق بها بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانات تولية غير أهل الحمية الناصحين، أو غير الأكفاء الخبيرين قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وأعظم الأمانات أمانة الولايات كلها، صغيرها وكبيرها.

والحذر من تولية الأجانب، فإنهم إذا اؤتمنوا خانوا وإذا عزوا أهانوا، يقابلون الإحسان بضده ويتحينون الفرص ويكونون أعوانا لأبناء قومهم عند أول حادث: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وأهم صفات قواد المسلمين الاقتداء بنبيهم ﷺ والاهتداء بسنته وهديه في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة، وتربية أخلاقهم وأن يكون على جانب من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة بتاريخ الإسلام ورجاله، ومعرفة الأسباب المضعفة للأمة والسعي في إزالتها وتحقيقها حسب الإمكان، والسعي في طرق الإصلاح كلها.

وأن يكون ذا قوة وأمل ورجاء واسع، لا يملكه اليأس ولا يتطرقه الفتور، وأن يتصل بأفراد المسلمين، وجميع طبقاتهم اتصالا وثيقا، ويتعرف شئونهم ويسأل عن أحوالهم ويأخذ بآرائهم الصائبة، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وأن يكون ذا فكر ثاقب وسياسة تامة، وانتهاز للفرص النافعة، وألا يزال نصب عينيه نفع المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، ودفع الشر عنهم بكل طريق؛ وأن يكون خاليا من الطمع والجشع، موصوفا بالكرم والجود في محله، في إعلاء كلمة الحق ورفعة الإسلام، وأن يكون حسن العلاقات مع جميع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم، يبدي لهم وده، ويستشيرهم ويأخذ بالناضج من آرائهم.

وأن يكون بصيرا بسياسات الأجانب، عارفا لحقوقهم آخذا الحذر من مكرهم وخداعهم، يعاملهم لمصلحة المسلمين، ويأخذ حذره منهم خوف الضرر. وأن يكون في ذلك كله مخلصا لله، مستعينا به، متوكلا عليه.

ومن أعظم وأجل الجهاد في سبيل الله الدعوة إلى الدين والإسلام، بشرح محاسنه وإظهار جماله، في عقائده، وأخلاقه، وآدابه، وتعاليمه العالية الراقية؛ فإن في ذلك قوة معنوية للمسلمين، فإنهم كلما فهموا دينهم وعرفوا ما يحتوي عليه من المحاسن التي تفوق الحد والإحصاء، ازداد إيمانهم وقوي يقينهم واندفعت عنهم شبه الملحدين، وعظم تمسكهم التام به، وعلموا أن السعادة والفوز منوط بإرشاداته وهدايته، وكان ذلك أيضا جهادا للأعداء من جهتين:

إحداهما: أن المنصف منهم أو من لم يملكه التعصب الشديد إذا أبصر حقائق الدين وهدايته، التي فاقت كل هداية، وصلاحه وإصلاحه للبشر كان من أكبر الدواعي لدخوله به إذا لم يحصل له موانع قوية.

الثانية: أن في ذلك إقامة الحجة على المعاندين من الأجانب وعلى الملحدين، الذين قلدوهم وخضعوا لهم، وفي ذلك من كف شرهم كله أو بعضه من المصالح ما لا يعد ولا يحصى.

فأكبر الجهاد الجهاد بالدين وهو أعظم سلاح للمسلمين، وأكبر جيش، إليه يلجأون، وبه يعتصمون، تبين أصوله الكلية ومصالحه العامة، وأنه يدعو إلى كل خير وصلاح وسعادة في المعاش والمعاد، وفي الظاهر والباطن، ويحث على إقامة العدل والقسط بكل طريق، ينهى عن كل شر وضرر وفساد، ويدعو إلى المقاصد النافعة، وإلى جميع وسائلها، وأن جميع أصوله وفروعه في غاية الإحكام والحسن. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ومن تتبع أصول الدين وفروعه وآدابه وأخلاقه وتعاليمه وإرشاداته العالية وجدها تدعو إلى كل خير وصلاح وفلاح، وعرف أنه لا يمكن الصلاح والإصلاح البشري إلا بالدين، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

